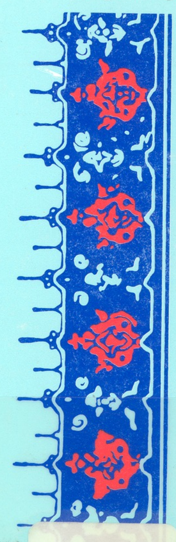
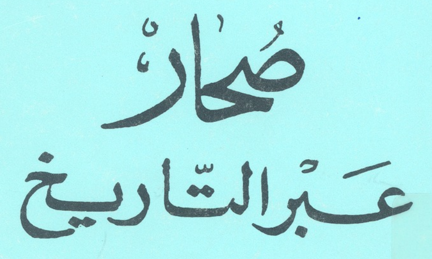


سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة





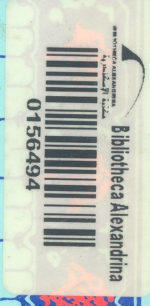


تأليف
اندرو ويليامسون

العدد الثاني

الطبعة الثالثة

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



تراثنا

صُحار عبر التاريخ

تأليف

اندرو ويليامسون

ترجمة

محمد أمين عبدالله

العدد الثاني
الطبعة الثالثة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِی البَحْرِ کَالأَعْلَامِ
فَبِأَیِّ آلَاءِ رَبِّکُمَا تُکَذِّبَانِ)

(قرآن کریم)

صُحــار

تقع مدينة صحار على البحر ، وهى العاصمة ، ويقيم بها كثير من التجار الملاحين الذين يتاجرون فى السفن مع البلاد الأخرى ، وهى أكثر المدن العمانية تعداداً للسكان ، وأكثرها ثراء ، ولا يوجد على ساحل الخليج أو فى أى بلاد إسلامية أخرى بلد يفوق صحار ، من حيث الثراء ، والمبانى الجميلة ، ووفرة البضائع الأجنبية .

هكذا قال الإصطخرى المؤرخ فى كتابه المسمى « المسالك والممالك » والذى ألفه فى القرن الرابع عشر الميلادى ، عندما كانت صحار فى قمة رخائها .

ولقد كرس المؤلف كتيبه هذا فى الحديث عن النهضة التجارية فى صحار إبان هذه الفترة ، وبه وصف دقيق للمدينة ، وتقييم للآراء المبالغ فيها ، بحيث يعتبر الكتاب وثيقة تاريخية شاهدة على عظمة وأهمية هذه المدينة وازدهارها .

ولم تكن ثروة صحار وازدهارها فى الوقت الذى كتب عنها الإصطخرى قد تحققت نتيجة للثروة الطبيعية وحدها .

حقاً كانت عمان تنتج سلعاً كثيرة ، ولقد لعبت دوراً بارزاً فى التجارة الآسيوية التقليدية ، مثل تجارة البلح ، والفواكه الجافة ،

والنحاس ، وبيع الخيول ، وكذا العنبر ، ومع ذلك فقد كانت عمان بلداً فقيراً دائماً فى موارده الطبيعية .

ولم يكن من الممكن أن تستمد صحار كل ثروتها من هذه التجارة المحلية المحدودة وحدها . وإنما استمدتها من التجارة فى السلع الكمالية والتوابل بين الشرق الأقصى وبين الهند ، من ناحية وبينها وبين الشرق الأدنى وأوربا من ناحية أخرى .

ومنذ القرن السادس الميلادى أو قبله بقليل كانت السفن التجارية تجوب الخليج ، وتمر بمدينة صحار فى طريقها إلى الهند والصين والشرق الأوسط ، وفى رحلة العودة التى كانت تستغرق أكثر من عامين كانت السفن تسلك أطول طريق عرف فى العصور الوسطى ، وطوله يزيد على سبعة آلاف كيلو متر ، من الخليج إلى كانتون فى الصين .

وبالرغم من الإنجازات الثقافية والصناعية التى حققتها الصين والهند فان هذه الدول لم تكن من الدول الملاحية فى العصور الوسطى وكان معظم التجارة فى أيدى المسلمين والعرب والفرس حتى القرن السادس عشر ، وكانت السلع التى تنقلها أساطيلهم التجارية هى : التوابل والروائح والعقاقير ، والمنسوجات ، وجميع أنواع السلع الكمالية والأحجار الكريمة ، وكانت فى ذلك الوقت من المستلزمات الحيوية لحياة الناس فى العصور الوسطى ، فى كل من الشرق والغرب

ولقد كانت مخاطر البحر فى ذلك الوقت كثيرة ، وكان ينتج عنها

تعرض للقرصنة ، أو تحطمها نتيجة ارتطامها بالصخور ، غير أن الأرباح التي كانت تدرها تلك التجارة كانت تعادل أضعاف رأس المال آلاف المرات .

ومن الغريب أن موانىء الخليج قد تخصصت بدورها فى هذه التجارة مثل ميناء بوشهر ، والبصرة ، وسيراف ، ثم بعد ذلك هرمز القديمة والجديدة . وكانت جميعها تتمتع بشهرة عالمية فى ثرائها وازدهار تجارتها .

وكانت هرمز الميناء الرئيسى لتجارة المحيط منذ القرن الثامن والتاسع الميلاديين إلى القرن الرابع عشر وحتى القرن السادس عشر ، وقد وصلت شهرتها إلى انجلترا التى كانت قد بدأت فى توسيع نشاطها التجارى ، وكان هناك قول مأثور يردده التجار الإنجليز وهو قولهم « إذا كان العالم خاتماً فان هرمز هى لؤلؤته » .

وكان البحر الأحمر والخليج على جانبى شبه الجزيرة العربية هما الخليتين الطبيعيتين لهذه التجارة . وإن كان الخليج يزيد فى أهميته خلال العصور الوسطى ، باستثناء الفترة من القرن السابع إلى التاسع ومن القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر ، وذلك بسبب أن الأحمر أقل عمقاً من الخليج ، فكانت الملاحة فيه خطرة ، وغالباً ما كان يتم تفريغ البضائع من السفن وتحميلها على الجمال عبر أراضى الحجاز .

هذا بالإضافة إلى أن بعضاً من المدن الهامة فى العصور الوسطى كانت قريبة من الساحل ، فقد كانت عاصمة الدولة الساسانية تقع على نهر دجلة . وكانت بغداد وهى تشغل مساحة أكبر من مساحة مدينة مانشستر الحديثة حالياً ، أكبر مركز للثروة والاستهلاك فى غرب الإمبراطورية الصينية .

وكانت الأرباح التجارية الكبيرة تأتى من التجارة طويلة المدى وكانت التجارة محصورة فى أيدى أقل عدد ممكن ، مما كان يتيح أعلى نسبة من الربح ، وقد اشتركت القوى السياسية فى ذلك الوقت فى معاملات تجارية طويلة مع مراكز التجارة .

وعلى فترات مختلفة كانت هناك مدينة أو اثنتان هما اللتين تسيطران على التجارة فى المحيط . وبالطبع كانت تقع منافسة تجارية ومناوشات عسكرية بين تلك المدينتين .

وكان المجتمع التجارى فريسة لقوى العدوان ، كما كانت السفن المحملة بالبضائع تصادر من جانب الحكومات المعادية لبعضها البعض ولهذا فقد كان التجار يلجأون إلى الموانىء ذات القوة البحرية الكافية لحمايتها ، وعندما كانت المراكز القوية تتغير كان التجار ينتقلون معها حيث يجدون الأمن على أنفسهم ، والأمان على تجاراتهم .

ونتيجة لذلك كانت المدن التجارية تقوم فى الشرق ، وتبعها فى السنوات الأولى للإسلام مدينة البصرة ، ثم سيراف ، ثم جزركيش ، وهرمز ، وقد نالت هذه المدن نصيباً كبيراً من الثروة والجاه والشهرة العالمية .

ولما توقف النشاط التجارى العالمى عن الوصول إلى هذه الموانىء أصبحت جميعها ، عدا البصرة ، التى كانت ذات مركز زراعى عالمى ، مجرد قرى يعيش فيها الصيادون .

ولقد كان لموانىء الساحل العمانى دور خاص ، تلعبه فى هذه التجارة ، وكان خليج عمان يمثل مدخلا مستقلا من الخليج ، تفصله حدود هرمز ، وهذه الموانىء العمانية تشارك ميناء هرمز فى التعرض لتيارات الريح فى الخليج وفى الطرق البحرية لرأس مسندم التى كانت مفتوحة دائماً للملاحة .

وفى نفس الوقت يقع خليج عمان على حافة منطقة الرياح الموسمية التى كانت ذات أهمية قصوى للملاحة فى المحيط ، وكان الساحل العمانى هو المنطقة الطبيعية لأى سفينة تغادر الخليج وهو آخر محطة للسفن المبحرة إلى الهند مباشرة .

ومن الموانىء العمانية كانت السفن تتزود بالمؤن للرحلة الطويلة التى كانت تستغرق أكثر من شهر .

وبالطبع كانت السفن التى تدخل الخليج ترسو فى أول مرفأ فى طريقها ، وهو موانىء عمان ، حتى تتفادى الارتطام بالشعب الموجودة عند شبه جزيرة مسندم ، والتى لا تزال تعرف باسم « رأس المقابر » .

وكان الساحل العمانى أيضاً يحتل موقعاً مثالياً ، ويشارك فى التجارة بين إفريقية وبين الهند ، إذ أن هبوب الرياح الموسمية بين الاثنين يمر بالساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، ولقد كانت التجارة الإفريقية ذات أهمية قصوى بالنسبة لكثير من السلع التى كانت رائجة فى الهند ، مثل العاج الإفريقى ، والأصواف ، وجلود الحيوانات كالنمر ، والعقاقير والروائح الإفريقية .

وكانت الاستثمارات التجارية لمنطقة الجنوب العربى تتم فى عمان أما بطريقة مباشرة ، وإما عن طريق المقايضة بالبضائع الإفريقية مع تجار الخليج ، الذين كانوا يمرون فى طريقهم إلى الهند ، والذين كانوا فى حاجة إلى السلع التى تروج سوقها فى الشرق .

لم يكن وضع صحار يؤهلها لأن تكون ميناءاً رئيسياً على الساحل العمانى ، فهى تقع على الساحل الرملى المنخفض لمنطقة الباطنة ، وعلى مساحة تربو على خمسمائة كيلومتر من البحر ، خلف منطقة

رأس الحد ، حيث تهب الرياح الموسمية ، ولا يوجد بها ميناء طبيعى فشاطئها المفتوح يعرضها للرياح الشمالية ، وهى الرياح التى تسود خليج عمان ، وهو ساحل يصلح مأوى للسفن ، ولا يبعد عن جزر السوادى بأكثر من ثلاثين ومائة كيلومتر إلى الجنوب الشرقى .

غير أن صحار يمتاز موقعها بوجود وادى الجزى الذى يمتد ٢ كم فى البحر . وعلى شمال المدينة يوجد أطول مجرى مائى فى المنطقة الوسطى من الباطنة ، وهو لا يجرى على مدار العام ، ولكن مياهه تتحول إلى قنوات جوفية ، فتجعل المنطقة التى حول صحار أفضل المناطق على الساحل .

ويكون وادى الجزى مدخلا حيوياً للمواصلات إلى الداخل ، فمياه هذا الوادى تكون طريقاً طبيعياً عبر الحاجز الخلفى وراء ساحل الباطنة ، ويؤدى تقريباً بصورة مباشرة إلى واحة البريمى ، التى كانت فى العصور الإسلامية الأولى تعتبر العاصمة التوأم لعمان ، وعاصمة الإقليم الواقع غرب الجبال فى مقابل مدينة صحار ، وهى عاصمة الساحل المطل على المحيط الهندى .

وبسبب وادى الجزى كانت صحار دائماً المركز الطبيعى للتطور الزراعى فى إقليم الباطنة الساحلى ، وهى تنتج فائضاً كبيراً من المنتجات الزراعية ، وبخاصة البلح ، والفواكه شبه الاستوائية .

وكانت السفن المتجهة إلى الصين والهند تجد فى مدينة صحار ما تشاء من المؤن الرخيصة والوفيرة . فتملأ الأماكن الشاغرة فى السفن بالبلح والفواكه الجافة التى كانت تجد لها سوقاً رائجة فى الشرق إلى حد كبير ، كما أنها فى رحلة العودة تجد فى سواحل الخليج الفقيرة سوقاً رائجة لتلك السلع .

كل هذه العوامل جعلت من صحار محطة هامة علي الطريق من الخليج إلى الهند وإلى إفريقية ، ولكنها إلى حد ما ظلت فى فترة من مراحل تاريخها خلال القرن الرابع وإلى العاشر إحدى الموانىء الرئيسية البارزة فى آسيا ، فى حين كانت فى أوقات أخرى مجرد مقاطعة من مقاطعات عمان .

ولكى نستبين هذا التذبذب الذى كانت عليه مدينة صحار كميناء فإنه من الضرورى الإلمام بتاريخ هذه المنطقة .

فى التاريخ الأول :

من الصعب بمكان أن نتتبع حياة الملاحة العمانية وأصل وجودها وإنه لمن الجائز أن عمان كانت تلك البقعة الغامضة ، المعروفة لسكان ما بين النهرين ، فى الفترة الألفية الثانية والثالثة ، باسم « مجان » أو « مكان » وهى البلاد التى اعتادت السفن أن تسافر إليها لجلب النحاس والخشب والمرمر والأحجار الكريمة .

واسم القرية الحديثة « مكانيات » الواقعة على بعد مائة كيلو متر من صحار فى الداخل .

وأيضا « مزون » الإسم القديم لإقليم صحار ..

ومن المحتمل أن يكون الإسم قد اشتق من كلمة مجان السومرية .

وفضلا عن أن بعض الباحثين يشير إلى أن النسبة الكبرى من النيكل فى الأدوات النحاسية السومرية كان مصدرها عمان ، وأن عمان كانت المصدر للنحاس السومرى ، وبالتالى فلابد أن تكون تلك المنتجات قد جاءت من مجان .

وعلى أية حال فان قسما كبيراً من خام النحاس الإيرانى به نسبة عالية من النيكل ، كما أن هناك منطقة فى إيران تسمى مكران الأمر الذى يحتمل معه أن يكون اسم هذه المنطقة قد اشتق من اسم مجان .

ويتضح من هذا ، وإلى أن تتم الاكتشافات الأثرية ، أن مشكلة مجان ، واحتمال وجود الملاحة العمانية خلال الفترة الألفية الثالثة قبل الميلاد ، لا تزال موضوعاً مطروحاً للبحث .

لقد كان هناك بالطبع نوع من الاحتلال لصحار خلال تلك

الفترة الألفية الثالثة ، وقد دلت الحفريات الحديثة للدكتور « فرى فلت » على وجود عدة آلاف من شواهد القبور تحت سفوح الجبال ، خلف صحار ، يرجع تاريخها إلى تلك الفترة ، إلا أنه لم تكتشف حتى الآن أى مناطق تجارية على سفوح تلك الجبال نظراً إلى أن المستوطنات الأولى التى تم اكتشافها حتى الآن فى المنطقة الغربية من صحار تشهد بوجود اتصال قوى مع جنوبى إيران ، ويرجع تاريخ هذه المستوطنات إلى الخمسمائة عام الأخيرة قبل الميلاد .

ويرى بعض العلماء أن هناك شبهاً بين عمان وصحار ، كميناء تجارى هام ، بالنسبة للمؤرخين والكتاب اليونانيين والرومان ، غير أن المعلومات عن عمان متخبطة إلى حد كبير لسوء الحظ .

ويقول المؤرخ اليونانى « بلين » الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد ، إن عمان على الساحل العربى من الداخل ، وتقع بالقرب من هرمز ، فى حين وصفها آخر ، وذكر أنها على الساحل الفارسى ، من حيث تبحر السفن إلى الجزيرة العربية .

ويرى الجغرافى « بطليموس » من ناحية أخرى ، أن عمان تقع على ساحل الباطنة بالقرب من صحار الحالية ، ومما يزيد الأمور تعقيداً أن ثمة قبيلة تسمى عمانى ، أو عمان ، وهى غير مدينة عمان .

وليس هناك إشارة إجمالية عن صحار قبل القرون الأولى بعد الميلاد . عندما ورد ذكرها فى السجلات باسم « مزون » ، وأن ربط مزون بصحار أمر لا جدال فيه منذ أن بدأ المؤلفون والكتاب فى القرن الثالث عشر يشيرون إلى أن مزون هو الإسم الفارسى لعمان ، وبأنها كانت تحت سيطرة الحكم الفارسى الساسانى وتقع فى المنطقة المعروفة لدى العرب باسم صحار .

ولابد أن سكان مزون كانوا من الملاحين المرموقين حتى بداية القرن الثالث الميلادى عندما قام أزدشير ، مؤسس الدولة الساسانية بنقل بعض القبائل العربية من أزد مزون للعمل كبحارة فى ميناء الشحر الواقع فى حضرموت ، وكانت هناك كنيسة نسطورن فى مزون منذ عام ٤٢٤ بعد الميلاد .

ومنذ ذلك الوقت ذاع صيت تلك الكنيسة على غيرها فى شبه الجزيرة ، لأن ممثليها كانوا يسافرون كثيراً للاجتماع بزملائهم فى كنائس العراق .

وقد وقعت مزون تحت سيادة العاصمة الساسانية الهامة أزدشير على ساحل فارس ، والتى امتد نشاط مبشريها إلى ملايو ، وذلك فى مطلع الهجرة النبوية .

واشترك النسطوريون بالتجارة البحرية مع الهند والأقطار

الواقعة وراءها ، ولهذا يعتبر المجتمع المزدهر فى صحار شاهداً على دورها فى التجارة خلال القرون السابقة للإسلام .

* * *

كانت صحار مقراً للحاكم الفارسى مرزبان ، وهى فى نفس الوقت تعتبر سوقاً من الأسواق العربية التقليدية ، وكانت أيضاً مقراً لمعظم القادة العمانيين البارزين .

ولقد استقبل بها الجلندى أول بعثة إسلامية إلى عمان ، وكان للعرب نشاطهم على الجانب الإيرانى من الخليج فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى رأى بعض المؤرخين المسلمين الأوائل أن الآية الكريمة فى سورة الكهف : « أما السَّفِينةُ فكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فى البَحرِ فأرَدتُ أن أعيبَها وكان وَراءَهُم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً » ، إنما تشير إلى مالك بن فهم أو إلى الجلندى ابن كركر .

وقد طرد الفرس نهائياً من عمان بعد الهجرة بقليل ، وسقطت صحار بعد ثمانى سنوات تحت حكم عثمان بن العاص ، أى فى شهر أغسطس سنة ٦٢٩ م .

وقد استفاد هذا الحاكم الجديد من قوة عمان البحرية فشن

هجوماً ناجحاً جداً من صحار ومسقط على الساحل الغربى من الهند .

خلال القرنين والنصف ومن بداية التاريخ الهجرى الإسلامى نشط العمانيون على معظم سواحل المحيط الهندى ، وكانت هناك جالية عمانية كبيرة فى البصرة ، وفى مستوطنات أخرى هامة على ساحل فارس (ميناء بنى عمارة) وفى كرمان ، كما نشط العمانيون على ساحل مكران ، بينما كانت أسرة العفى وفويدة تقيم فى تجمعات هامة فى السند من قبل الفتح الإسلامى للإقليم .

وخلال القرن الأول من الهجرة استوطنت أعداد غفيرة من العمانيين الساحل الشرقى لإفريقية ، وكذلك كان التجار العمانيون يتعاملون مع الشرق الأقصى فى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، وقد قام أحدهم ، وهو أبو عبيدة عبدالله بن القاسم ، بأول رحلة بحرية عربية للصين ، سجلها له التاريخ :

وتعرف صحار غالباً بأنها حاضرة عمان ، وقد كانت عاصمة الساحل العمانى .

وخلال تلك الحقبة كانت عمان تتمتع بالاستقلال الذاتى عن الخلافة .

وفى نهاية القرن التاسع اضطرب الوضع فى عمان بسبب

الحروب الأهلية التى أدت إلى إنهاء حالة الاستقرار للإمامة الأباضية .

وانتهى الصراع الداخلى فى عام ٨٩٢ م عندما غزا محمد بن نور حاكم البحرين عمان بتحريض من قبائل نزار ، وهرب بعض العمانيين إلى هرمز على ساحل كرمان ، بينما غادر أهل صحار إلى شيراز والبصرة مع عائلاتهم ، ومعهم أمتعتهم وبضاعاتهم ، كما تذكر المصادر التاريخية .

ولقد كان رحيلهم قصير المدى ، كما سيأتى ذكره ...

صُحار

فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى

كانت البلاد العمانية فى تلك الفترة قد استردت بعضاً من الأهمية التاريخية الأولى على حد رأى الجغرافيين العرب التقليديين ، ويصفها جغرافيو المدرسة البلخية فى تلك الفترة بأروع الأوصاف ، أما وصف الإصطخرى لصحار فقد سبق أن أشرنا إليه آنفاً ، ولكنه لم يكن المؤرخ الوحيد الذى تحدث عن أهمية صحار ومركزها المرموق بين أهل مدن العالم الإسلامى .

فقد أكد آراء الإصطخرى الجغرافى الفارسى ابن حوقل ، مؤلف كتاب « حدود العالم » ، وأسهب فى وصف صحار واعتبرها مستودع العالم . ويستطرد فيقول — بأنه — لا توجد مدينة فى كل أنحاء العالم تضاهى صحار فى ثراء تجارتها ، وإن جميع منتجات الشرق والغرب ، والجنوب والشمال تصب فى هذه المدينة ، ومنها إلى جميع المراكز التجارية فى العالم .

وفى موضع آخر يتناول بالتفصيل هذا الموضوع ، ويقول :

« كان مرسى السفن يصل إلى حوالى ستة كيلو مترات ،

طولا وعرضاً ، وكان يكتظ دائماً بالسفن الوافدة والمغادرة » .

وبالقرب من الشاطئ يوجد الجامع الذى يقع فى نفس المكان الذى بركت فيه ناقة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ، وفى هذا الجامع منارة عالية جميلة المنظر ، ومحراب هو غاية فى الأبهة والروعة .

أما المقدسى فانه يصف صحار ، بأنها بوابة الصين ، ومستودع الشرق والمغرب ، ودعامة اليمن .

كل هذه الأوصاف أثبتها الجغرافيون فى مؤلفاتهم منذ أن حققها الباحثون والدارسون الموثوق بهم ، والمشهود لهم بالدقة ، وليس هناك ما يدل على أن أحدهم قد زار عمان .

غير أن الإصطخرى وابن حوقل والمقدسى كانوا كثيرى الترحال فى الخليج خلال فترة منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، وقد كانت الحماسة تدفعهم للقاء العديدين الخبيرين بمنطقة صحار .

وإن النقطة الهامة الأخرى هى اهتمام كل هؤلاء المؤرخين بمدينة سيراف ، حيث إنهم اعتبروها ميناءاً تجارياً منافساً لصحار على ساحل فارس .

ويصفها الإصطخرى بأنها فى مثل اتساع شيراز ، وأن التجار فيها يقومون ببناء منازلهم من عدة طوابق ، وأن نفقات تشييد المنزل الواحد تصل إلى مبلغ ٣٠ ألف دينار .

غير أن هناك إجماعاً على أن صحار هى أعظم الموانىء فى العالم الإسلامى بما فى ذلك سيراف أيضاً .

ثم يعود المؤلفون الذين ظهروا فيما بعد لتوضيح الصورة التى رسمها الجغرافيون الأوائل عن مدينة صحار ، ويؤكدون على أهميتها على نحو ما سبق .

وكتب أبو الفداء فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، فذكر أن صحار كانت فى وقت من الأوقات أشهر مدن الخليج ، وأكثرها حضارة ، حيث اعتادت سفن الهند والصين وإفريقية على ارتيادها .

غير أنه فى زمن أبى الفداء أصبحت صحار مدينة تشبه القرية « الخربة » .

وأما ابن مجاور فى مؤلفه الجغرافى عن جنوبى الجزيرة العربية فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، فانه يعطى وصفاً جميلاً لصحار ، فيقول :

كان يوجد بها اثنا عشر ألف منزل ، وكان كل قبطان يسكن فى منزل مستقل ، وقد اعتاد السكان على جلب الماء من الآبار ، وكان يوجد بها ما يقرب من اثنين وتسعين ومائة ميزان ، لوزن البضائع المتداولة بين التجار ، وكانت البيوت مبنية بالطوب والخشب ويقال بأن الخان قد دمروا أسوارها وحصونها .

ويصف بعض الكتاب الحالة الزراعية فى صحار خلال فترة ازدهارها ، بأنها كانت تنتج كميات هائلة من البلح ، بالإضافة إلى الموز والتين والفواكه شبه الاستوائية ، وكان الزراع يتوسعون فى زراعتها ، وكان لهم اتصال وثيق بالتجـار ، إذ انتشرت فى عمان خلال القرن العاشر الحمضيات التى نقلوها من الهند ، ومنها إلى الشرق الأدنى .

وكانت صحار مدينة عالمية الأهمية ، وكان بها جالية يهودية كبيرة ، تعمل بالتجارة وبالقروض المالية وفق العرف السائد فى ذلك الوقت .

وكان الطوب الأحمر يصنع بها فى معامل خاصة به .

وليس هناك ما يدل على ازدهار المسيحية النسطورية بها .

وكان التجار الفرس الذين يسافرون بانتظام بين الهند والصين

ينزلون فى صحار ، إلا أن السيطرة التجارية فى عمان كانت للعرب .
واشتهر العمانيون ببناء السفن ، وقاموا بالتجارة البحرية ، حتى إنهم وصلوا فى رحلاتهم الملاحية إلى إندونيسيا والصين شرقاً ، وإلى مدغشقر غرباً .

وتظهر مدى أهمية هذه الرحلات فى الهدايا التى قدمها حاكم صحار ، أحمد بن هلال ، إلى الخليفة العباسى المقتدر عام ٢٠٥ هـ — ٨١٣ م— عندما طلب منه مدداً عسكرياً لمقاومة القرامطة . وهم طائفة الإسماعيلية التى تحكمت فى الأقاليم الشرقية من شبه الجزيرة خلال القرن العاشر الميلادى ، وقد شملت تلك الهدايا ببغاء من الهند وعدداً من القرود من إندونيسيا ، ونملة فى حجم القطة من إفريقيا (سلحفاة) ، وعدداً من الثعابين الضخمة ، وقد كان لتلك الهدايا القيمة انطباع هائل ، نظراً لتنوعها وغرابتها .

وقد كان لصحار تجارة رائجة مع شرق إفريقية ، ويقول المؤرخ المسعودى الذى زار صحار فى عام ٣٠٤ هـ —٩١٧ م — ، أن أصحاب التجارة فى شرق إفريقية هم من أزد العرب العمانيين ، وهذا على الرغم من أن المسعودى قام بالرحلة من إفريقية وإليها على سفن مصنوعة فى سيراف :

وكان العمانيون تسبقهم شهرتهم فى الصومال وفى شرقى إفريقية بل إن نشاطهم قد امتد حتى وصل إلى جنوب كانيبالو ، وهى مدغشقر الآن .

ولقد كانت السلع الإفريقية التى تستأثر باهتمام التجار العمانيين كما يقول أحد الكتاب المعاصرين ، هى السلع التى تروج فى بلادهم عمان ، وفى الصين ، كالعاج ، والسلاحف ، والجلود ، والعنبر والشبان من الرجال الذين يستطيعون القيام بالأعمال الشاقة .

الأدلة الأثرية

فى صحار

ما تزال صحار حتى اليوم تعتبر إحدى المدن الكبرى فى عمان ، ويسكنها ما بين سبعة إلى عشرة آلاف شخص .

وقد بنيت هذه المدينة على شريط ضيق بجانب البحر على أحد المرتفعات .

وتتميز صحار من سائر المدن العمانية الأخرى ، وعن مدن جنوب الجزيرة العربية ، بمنازلها التى تشيد من سعف النخل ، ومن الأحجار ، ومن الطين ، أو من الطوب الأحمر .

ولعله من حسن حظ المنقبين عن الآثار أن الإنشاءات العمرانية كانت من جذوع النخل التى لا تعوق أعمال الحفر ، غير أن هذه الأشجار كانت عميقة الجذور ، بحيث تعطل أعمال الحفر فى المناطق المرتفعة .

ولقد تلفت هذه الاستحكامات فى كثير من المواقع أو إلى عمق كبير ، وربما يعود هذا إلى سلسلة الخنادق التى يعود إنشاؤها

إلى القرن السابع عشر ، والتى كانت تحيط بالقلعة وبأسوار المدينة ، والتى ربما كانت تظهر فيها الأوانى الخزفية القديمة لو أنها كانت موجودة هناك .

وعلى أية حال فلم يتم العثور على أية مجموعة من الأوانى خاصة بالعصر الذى سبق الإسلام ، وإنما يعود تاريخ ما عثر عليه إلى القرن الأول والثالث بعد الميلاد .

ولا يوجد أى أثر لنشاط أو لمستوطنات زراعية قبل الإسلام فى حدود المدينة .

وبالتالى فانه يبدو من هذا النقص فى الموجودات الأثرية أن المستوطنات فى مزون وصحار قبل الإسلام لم تكن مستوطنات كبيرة ولم تضم مناطق زراعية .

كذلك فإن الأوانى الخزفية التى ترجع إلى القرنين الأولين للإسلام كانت نادرة هى الأخرى ، ويعبر عن ذلك ما عثر عليه من أوانى القرن الثالث والرابع ، والقرن التاسع والعاشر ، التى تغطى كل المنطقة الأثرية .

ومن الواضح أن صحار قد نمت وتطورت بسرعة خلال تلك الفترة ، بحيث وصلت إلى مساحتها القصوى خلال القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى .

وتحتل المنطقة الأثرية للقرن الرابع حوالى ٧٣ هكتاراً ، غير أن هذا لا يمثل إلا نسبة ضئيلة من امتداد التوسع العمرانى ، إذ أن حوافى التلال قد دمرت فى الجهة الداخلية ، بفعل زحف مزارع النخيل عليها .

ومن المحتمل أيضاً أن يكون الجزء الأكبر من مبانى البلدة قد بنى بسعف النخيل ، ولم يخلف أنقاضاً أثرية .

وعلى كل فإن مساحة ٧٣ هكتاراً تعادل أضعاف المساحة التى تشغلها البلدة ، بما فيها المبانى المشيدة بالأحجار ، والبيوت المصنوعة من سعف النخيل .

وتعتبر هذه المساحة أقل من المساحة المبنية فى سيراف فى القرن العاشر الميلادى ، وقد كانت هذه المساحة تربو على مائتى هكتار وكانت المبانى فى سيراف تشيد بالأحجار ، ولم يكن بها كثير من البيوت التى تقام بسعف النخيل ، وبالتالى فإن المبانى فى سيراف قد تركت أنقاضاً كثيرة .

وإنه من غير الممكن إعطاء صورة واضحة عن الهندسة المعمارية فى صحار قبل القيام بحفريات واسعة ، وإن قسماً كبيراً من المبانى ذات الواجهة المتجهة نحو مكة تقع تحت القلعة الحديثة وتمتد إلى ما وراءها .

وربما كانت هذه المبانى هى بقايا الجامع الذى أشار إليه المقدسى .

* * *

ويمكن التحدث بدقة أكثر عن الصناعة فى صحار فى القرن الرابع الهجرى — العاشر الميلادى . فعلى الجانب الشمالى من البلدة تقع المبانى الحجرية . وكان يتم الحصول على الطوب من أحد أفران الطوب الكبيرة ، وربما كان هذا الفرن كبيراً ، وذلك لوجود بقايا الطوب فى أجزاء كثيرة من المنطقة ، ولا توجد أدلة على وجود أفران بعد القرن الرابع الهجرى .

ومن الجائز أن تكون الأحجار المستعملة فى الوقت الحاضر قد صنعت فى تلك الفترة ، ثم سرقت من أنقاض البيوت المتهدمة ، وكما يروى فإن صناعة الأحجار كان يقوم بها اليهود ، كما كان الحال فى صنعاء .

وأما الصناعة الأخرى التى كانت تقوم فى صحار فهى صناعة صهر النحاس ، وقد كانت هذه الصناعة تتركز فى مشارف البلدة عند الطريق الطبيعى إلى الداخلية ، وكان عمال النحاس يشغلون حيزاً كبيراً فى المدينة .

وقد كان النحاس صناعة مألوفة فى المنطقة ، وكان إصلاح

الأوانى التالفة يتم فى صحار بالمسامير النحاسية ، بينما يتم فى الأقطار الإسلامية الأخرى بالمسامير الحديدية .

كما كان الزجاج يصنع فى إحدى المناطق القريبة من صحار .

وتشير المراجع العديدة كثيراً إلى صناعة الأوانى الزجاجية . وأنها إحدى المنتجات الهامة التى كانت تصدر إلى الشرق ، ومن المحتمل أن يكون معمل الزجاج فى صحار قد خصص إنتاجه إلى التصدير وإلى الاستهلاك المحلى .

ولقد كانت صناعة الحديد والصلب موجودة فى عمان أيضاً ، ولكنها كانت على نطاق ضيق ، ولعلها كانت مخصصة للاستهلاك المحلى .

* * *

فى خلال الألف العام الأخيرة ازداد ارتفاع الخط البيانى للعمران على ساحل البحر ، بمسافة تتراوح بين ثلاثين إلى أربعين متراً ، ويبدو أنه من المحتمل أن يكون الساحل الذى يتكون من كتلة واحدة قد امتد إلى ذلك الجزء .

ومن المحتمل أن يكون الشقان الكبيران اللذان يمثلان الآن قنوات فى وادى الجزى كانا يتجهان إلى البحـــر فى القرن الرابع الهجرى .

وهذه الخلجان إذا أمكن استخراج الطمى منها فإنها تشكل مأوى للسفن الصغيرة القادمة من الشمال الشرقى ، حيث لا يوجد مرمى للسفن هناك .

وربما كان يوجد فى صحار رصيف لرسو السفن .

وخلف بلدة صحار توجد آثار يعود تاريخها إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، التاسع والعاشر الميلاديين .

وهذه الآثار تكشف عن النظام الزراعى الذى كان مزدهراً فى صحار على ما يبدو عنه فى أى منطقة أخرى فى انشرق الأدنى .
وأن السهل الساحلى فى صحار يتكون من الحصى الطينية ، والأحجار الجيرية ، وبالغرب من ابحر يقل سمك هذه الطبقة نسبياً ويصبح سطح الماء موازياً لسطح الأرض .

وتتوافر المياه العذبة بالقرب من الشاطىء ، وتوجد فى آبار على عمق قريب ، أقل من نصف المتر ، ونظراً إلى أن الأرض تستمر فى الارتفاع فى اتجاه الجبال فإن المسافة من سطح الأرض إلى المياه الجوفية نفسها تصل من ١٢ إلى ١٥ كيلو متراً ، أسفل سلسلة الجبال خلف البلدة .

والزراعة الحديثة منحصرة فى شريط ساحلى يمتد لمسافة كيلومترين عرضاً تقريباً ، وتروى من الآبار التى يزداد عمقها

بصفة مستمرة كلما ابتعد الإنسان عن الشاطىء ، وذلك باستثناء موقعين لا يزالان يستخدمان أسلوب الرى القديم .

وهناك منطقة أخرى سيتم جلب المياه إليها من آبار عميقة ، حيث تمتد المزارع الحديثة إلى أكثر من ٢ كيلو متر على طول السهل الساحلى .

وأما خلف مزارع النخيل الحديثة فإن الأرض تكاد تكون جرداء ، غير أن هناك بعض ملامح لمناطق زراعية ، وعدداً كبيراً من المستوطنات الصغيرة .

وفوق كل ذلك هناك مراكز لصناعة الخزف ، ودلائل على وجود منطقة زراعية كثيفة تمتد إلى ما يزيد على ٦,٥ كيلو مترات من البحر .

ويرجع تاريخ هذه التلال والفخاريات إلى القرن الثالث ، والسادس ، والتاسع ، والعاشر .

وعلى الرغم من نظام الرى فإن الاستثمارات المبدئية لم تستمر طويلا ، وأن أقل من ثلث المزارع الواقعة خلف البلدة ، وبدرجة أقل من مواقع المستوطنات فيها ، يوجد فيها الخزف من القرن الخامس والحادى عشر .

ومن الواضح أنه خلال منتصف القرن الثانى عشر بعد الميلاد عندما تم إدخال فرع جديد من الفخار فقد تقلصت الرقعة الزراعية بحيث أصبحت مساحتها تعادل مساحة الرقعة الزراعية الحاضرة ، ويبدو أن المنطقة كلها كانت مغطاة بالمزارع والحقول خلال هذه الحقبة الزمنية .

وحتى اليوم فإن المنطقة الزراعية فى صحار تعتبر ذات أهمية قصوى لعمان ، ولكنها فى القرن الرابع الهجرى كانت تعادل أربعة أضعاف الرقعة الزراعية الحالية ، أى بما يزيد على ٦١ كيلو متراً مربعاً ، وهى تشمل المزارع التى كان يستخدم السماد فى زراعتها وتشير المراجع المعاصرة إلى أن هذه المنطقة كانت تغل محاصيل كبيرة من البلح والفواكه .

وهناك أدلة كثيرة على وجود أوان خزفية .

ومما لا شك فيه أن مبالغ كثيرة قد أنفقت على مشروعات الرى ، مما أدى إلى تلك الإمكانات الزراعية التى تفوق إمكانات الرى بالآبار .

ولقد تم حفر عدد من القنوات الجوفية الطويلة ، يتراوح عددها بين ١٥ و ٢٠ قناة ، تم دفعها إلى السهل لترفع الطبقة العليا من المياه الجوفية عند أسفل منطقة الجبل المعروفة فى عمان باسم الأفلاج ، أو القناة الفارسية ، مثل فلج المطيرى الذى يمر من

البئر الأم إلى منطقة الجبال ، ولمسافة ٤ كيلو مترات على هيئة قناة صغيرة ، ثم يخرج للسطح لمسافة ٧ كيلو مترات ، ليصل إلى المزارع

وهناك فلج آخر يمتد لمسافة ٧ كيلو مترات وأكثر ، بالإضافة إلى قنوات جوفية أخرى ، تسحب المياه من النقاط العليا تحت ضفة الوادى .

وفى مناطق أخرى فإن السدود والقنوات المتعددة الاتجاهات تضمن توزيع مياه فيضان الوادى على الأراضى الزراعية ، بدلا من أن تذهب هباءاً إلى البحر .

ومن الواضح أنه خلال منتصف القرن الثانى عشر الميلادى عندما دخلت صناعة الفخار والزجاج تقلصت الرقعة الزراعية بحيث صارت تزيد قليلا عما هى عليه اليوم ، فإن الانحسار عن المنطقة السكنية خلال هذه الفترة يبدو واضحاً ، إذ أنه بينما كان التوزيع السكانى فى المنطقة خلال القرن الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) يشمل ثلاثة وسبعين منزلا ، فإنه قد أصبح فى السنوات من ٤١٥ — ٤٤٠ هـ وإلى عام ٥٤٥ هـ يشمل ثمانية عشر منزلا فقط .

ومن هذا الدليل الأثرى فإنه يتأكد أن ثلاثة أرباع المناطق

السكنية فى البلدة قد هجرها أصحابها خلال فترة قصيرة نسبياً ، ربما بعد عام ٣٩٠ ﻫ (١٠٠٠ م) ، كما أن ثلثى المناطق الزراعية أصبحت هى الأخرى مهجورة فى هذه الفترة أو بعدها بقليل .

الخلفية التاريخية

إن الكارثة التى حاقت بصحار ، ووضعت حداً لرخائها وازدهارها لا تختلف أسبابها عن الأسباب التى رفعتها وأسهمت فى أهميتها .

وهذه الأسباب تكمن فى أوضاعها السياسية المضطربة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين — التاسع والعاشر الميلاديين .

وترجع هذه الأوضاع السياسية المضطربة إلى عامل رئيسى فى هذه الفترة ، وهو الانهيار المفاجىء للخلافة العباسية فى بغداد .

ففى بداية القرن الثالث الهجرى — التاسع الميلادى كان الخليفة العباسى يسيطر على إمبراطورية إسلامية تمتد من شمال أفريقية إلى الهند ، وتتمتع هذه الإمبراطورية بمركز ممتاز فى الناحيتين السياسية والتجارية .

وخلال القرن الثالث انفصل شمال أفريقية ومصر وسورية عن الخلافة المركزية ، وفى الشرق أصبحت خوراستان وتركستان وسجستان تحت حكم الأسر المحلية .

وقد ظهر خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، منافس للخلافة .

وانقسمت إيران بين حكام عدة أسر .

واحتل القرامطة شرقى الجزيرة العربية .

وأما العراق فقد سادها الانقلابات والثورات حتى كان عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥م ، فأصبح الخليفة العباسى دمية بين يدى بنى بويه وهم من قبيلة تنحدر من منطقة بحر قزوين .

واحتل الزيود مدينة البصرة فى أوائل القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، وقد كانت البصرة مدينة تجارية عظيمة جنوبى العراق ، وكانت تنافس مدينة ليفربول بانجلترا تقريباً ، ثم احتلها بعد الزيود ، الزنج فى سنة ٢٥٧ هـ — ٨٧١ م ، ثم اجتاحها القرامطة عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م ، ، وقد شهدت مذبحة بشعة خلال سبعة عشر يوماً .

ثم قام القرامطة بالهجوم على مكة ، وهى المدينة المقدسة ، ونقلوا منها الحجر الأسود إلى معقلهم فى الأحساء .

وربما كان هذا هو المقياس الحقيقى على ضعف الخليفة وعدم قدرته على الثأر لتلك الجريمة الشنعاء .

وقد بدأت الحكومة المركزية فى بغداد فى توطيد مركزها مع البوهيين عند تسلمهم مقاليد الحكم فى بغداد عام ٣٣٤ ﻫ ، ولم تسترد الخلافة سلطتها الأولى بعد ذلك أبداً .

ولكن فى عام ٣٦٩ ﻫ استطاعت حكومة بغداد أن تبسط نفوذها على العراق كله ، وعلى إيران ، وعلى القسم الأكبر من منطقة الخليج .

* * *

ويرتبط تاريخ عمان ، وبصفة خاصة تاريخ صحار ، ارتباطاً وثيقاً بأوضاع القوى المختلفة ، وبتقلبات السلطة فى عصر الإمبراطورية الإسلامية عام ٢٧٩ ﻫ — ٨٩٢ م .

ولقد كانت حكومة الخلافة العباسية من القوة بحيث مكنت محمد بن نور ، حاكم البحرين فى ذلك الوقت ، من التدخل فى الحرب الأهليـــة القائمة إذ ذاك فى عمان ، وكان تدخله سبباً فى

إحداث الخراب والدمار فى عمان الداخلية ، وقام بحرق المكتبات التى تضم أعداداً غفيرة من المؤلفات والكتب العمانية ، وبذبح عدد وفير من السكان ، وبتدمير أنظمة الرى التى يعتمد عليها السكان فى معيشتهم .

ثم اضطر إلى العودة للبحرين بعد فترة قصيرة ليواجه تهديد القرامطة ، وعين أحمد بن هلال حاكماً على عمان .

فأقام أحمد بن هلال فى بهلا ، وهى مدينة من مدن المنطقة الداخلية غربى مدينة نزوى .

ثم بعد مدة وجيزة وجد أحمد بن هلال أن مركزه فى بهلا مهدد ، فانتقل إلى صحار وأقام بها ، واتخذها مقراً للحكم حتى عام ٣٠٥ هـ — ٩١٨ م .

وإنه لمن الصعب تحديد الأسلوب الذى حكم به أحمد بن هلال عمان .

وفى الفترة الواقعة بين عامى ٢٥٩ — ٣١٨ هـ (٨٩٢ — ٩٣٠ م) صكت النقود فى عمان باسم السناريين ، الذين حكموا جنوب إيران لفترة قصيرة ، بالإضافة إلى حاكم أو حاكمين آخرين .

وكان والى الخليفة على اتصال وثيق بقبائل نزار التى دعت محمد بن نور للتدخل . وطبقاً لما جاء على لسان المؤرخ ابن خلدون فان بنى سامة كانوا القبيلة النزارية التى تحكم عمان .

ويبدو أن هذا الائتلاف الحاكم ظل محتفظاً بالسلطة ، حيث إنه لم يسمع عن وقوع اضطرابات خطيرة خلال تلك الفترة ، برغم الأدلة التى تحملها النقود .

ومن الواضح أن أحمد بن هلال وبنى سامة كانوا يسيطرون على صحار والمناطق الساحلية ، وقد ظلت عمان تعيش فى سلام بوجه عام .

وبالرغم من أن عمان كانت تدين بالولاء للخليفة العباسى ، فإنها كانت تتمتع بقدر كبير من الإستقلال الذاتى ، نتيجة للتوسع التجارى ، وقد كان أحمد بن هلال نفسه يشجع التجارة .

ويتحدث كتاب « عجائب الهند » الذى ألفه فى القرن الرابع الهجرى اليهودى إسحق ، عن تلك المكانة فيعزوها إلى بوزرج ابن شهريار ، من رام هرمز فى خورستان .

وهذا الكتاب هو الأصل لحكايات السندباد ، وهو مكون من مجموعة من قصص الرحلات التى تسجل كثيراً من الأحداث

شبه الخرافية ، إلا أنه برغم هذا يحمل قيمة تاريخية كبيرة ، نظراً لما ورد فيه عن منطقة الخليج خلال فترة ازدهار صحار ، وحيث توجد به تفاصيل ملاحية مفيدة .

ولهذا الكتاب أهمية لا تقدر ، نظراً لأنه مؤلف عن الخليج خلال الفترة التى ازدهرت فيها صحار ، وفى موضع من هذا الكتاب يتحدث مؤلفه عن هدية الوالى أحمد بن هلال إلى الخليفة عام ٣٠٥ ﻫ ، وهذه الرواية يمكن التحقق من صحتها من المصادر التاريخية الأخرى .

وإن القصص التاريخى ليعكس الأوضاع التجارية الهامة للخليج خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

وطبقاً لما ورد فى كتاب « عجائب الهند » ، فإن إسحق اليهودى قد غادر عمان متجهاً إلى الشرق فى نهاية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكان معه رأس مال لا يزيد على مائتى دينار ، وفى خلال ثلاثين عاماً قضاها فى الخارج نمت ثروته ، وعاد إلى صحار فى عام ٢٢٩ ﻫ —٩١٢ م ، ومعه سفينة كاملة محملة من مختلف الأصناف ، كالحرير الصينى والجواهر ، والأحجار الكريمة وبضائع صينية أخرى رائعة .

وتقدر قيمة ما جلبه معه من المسك والمنسوجات الحريرية وغيرها بثلاثة ملايين دينار ، ومثل هذه الثروة الطائلة أغرت قلوب البعض عليه ، فاتفقت كلمتهم وقرروا حرمانه منها ، وأقنعوا الخليفة المقتدر بأن يأمر رجاله بحبس التاجر اليهودى ، وبمصادرة أمواله وممتلكاته .

ولما علم أحمد بن هلال بخطة الخليفة تظاهر بالموافقة عليها ، وجمع كبار التجار ، وطلب منهم سراً أن يتخذوا موقفاً من هذا الأمر .

وفى الحال أغلقت الأسواق ، وأجمع العمانيون والأجانب على رفض هذا الأمر ، واتفقوا أيضاً على أنه فى حالة القبض على اليهودى فلن ترسو أى سفينة فى صحار ، وأخذ التجار فى إحضار سفنهم إلى الساحل لإعادة شحن بضائعهم .

وقد أصيب أهل صحار وسكانها بالذعر الشديد من ذلك ، نظراً لأنه يوجد فى صحار كثير من التجار الأغنياء الذين جاءوا من جميع البلاد ، وليس لديهم أى ضمان أو أمان لبضائعهم سوى العدلة وحماية الخليفة والحاكم لهم و لحقوقهم .

وقالوا للحاكم ، إنه إذا لم ترس السفن فى ميناء صحار فإننا

سوف نتجرد من كل ممتلكاتنا ، وإن السفن لن تجيء إلى صحار ، نظراً لأن الملاحة هي المصدر الوحيد للرزق بالنسبة لسكان عمان ، واضطر هذا الموقف الذى أبداه التجار ، والتذمر الذى بدا على جماهير السكان ، عملاء الخليفة إلى الفرار خوفاً من الجماهير الغاضبة .

وبقى التاجر اليهودى إسحق حيث كان يتمتع بحريته ، وبالثقة التجارية المطلقة التى كانت أساس تقدم صحار ، وأصل أهميتها .

* * *

وفى عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) انفصلت عمان عن الخلافة الإسلامية وزالت السيطرة عليها ، وبعد الهجوم على مكة بفترة قصيرة سقطت عمان فى أيد القرامطة بالرغم من المقاومة العنيفة التى بذلها أهلها ، والهجمات المضادة من جانب قوات الخليفة فى نفس العام ، إلا أن عمان ظلت تحت حكم عائلة الوجيهيين لمدة خمس وخمسين وثلثمائة سنة ، مستقلة من الخلافة وتابعة للقرامطة الذين وجد فيهم أهل عمان اعتدالا ومرونة أكثر من الخلافة ، وطبقاً لما جاء فى السجلات المحلية ، فإن هذه الفترة كانت فترة سلام ورخاء فى عمان .

وبناء على هذا الأساس الثابت فقد كان للعمانيين نشاط ملحوظ فى أماكن متفرقة من المحيط الهندى ، وعلى نطاق واسع .

وخرجت من عمان الأساطيل العظيمة إلى إفريقية ومدغشقر لتستولى على تجارة ومنتجات هذه البلدان .

وفى منطقة الخليج نفسها كان للبحـــرية العمانيـــة نشاط ذو شأن .

وقد حدث أن أبحر الأسطول العمانى بطول الخليج مرتين متتاليتين لمهاجمة البصرة ، وكانت حينئذ المركز التجارى الجنوبى للعراق ، وكانت — ولا تزال — واحدة من أكبر المدن الإسلامية فى العـــالم .

ناهيك عن السفن الضخمة الكثيرة التى جابت البحار والمحيط متجهة نحو الشرق الأقصى .

ففى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م ، قام يوسف بن وجيه بقيادة أسطول عظيم لمهاجمة مدينة البصرة ، التى كانت تحت سيطرة أبو الحسن امباريدى ، واستولى الأسطول العمانى على أبولة ميناء البصرة ، وكان قريباً من الاستيلاء على البصرة نفسها ، غير أن

شبت فيه النيران من قذائف السفن المعادية ، مما اضطره إلى الانسحاب .

وبعد عشر سنوات عاد محمود بن يوسف بقيادة أسطول عمانى آخر للاستيلاء على البصرة ، وقد كانت تحت حكم مقر الدولة ، الأمير المعين من قبل الخليفة .

وقام الأسطول العمانى بمهاجمتها تعاونه القوات البرية من القرامطة ، ولكن حاكم البصرة كان قد علم بأمر هذا الهجوم واستعد له استعداداً جيداً ، فألحق الهزيمة بقوات القرامطة .

وبعد عدة أيام من القتـــال العنيف اضطر الأسطول العمانى للعودة .

وفى نفس العام كانت عائلة ابن الجلندى العمانية تزداد قوة من موقعها الحصين فى هرمز على الساحل الفارسى ، ولقد كانت هذه العائلة من القوة ، حتى فى زمن الرسول — صلى الله عليه وسلم بحيث تفرض ضريبة مرور على السفن التى تمر عبر الخليج .

ولما جاء عام ٣٤١ هـ — ٩٥٢ م ، غامر الجلنديون باعلان استقلالهم عن تبعية الخلافة ، وقاموا بصك النقـــود باسم ابن الجلندى .

وقد وصفه المعاصرون له ، بأنه سيد البحار ، وحاكم هرمز ، وفى نفس الوقت كان القرامطة ، وهم الذين عاونوا ابن وجيه على مهاجمة البصرة ، قد وطدوا أنفسهم ، ليس فقط فى الأراضى العربية ، ولكن أيضاً فى جزر البحرين ، حيث أقاموا مركزاً للجمارك ، يقوم بتحصيل ضريبة مرور على السفن .

وفى ذلك الوقت أقيم على عجل حائط دفاعى ناحية البحر من قبالة مدينة سيراف الميناء القوى فى فارس .

وظلت سيراف باعتبارها الميناء التجارى الرئيسى للخليج غير مسورة من ناحية البحر ، وتعتمد فى حمايتها على القوة البحرية فى البحر الفارسى .

وقد كانت إقامة هذا الحائط بسبب أن يربط ما بين المنازل الساحلية وحتى المساجد فى خط واحد ، ليقيهم من الأسطول العمانى وليس من القرامطة .

ولقد سجلت المؤلفات العديدة للأساطيل العمانية رحلاتها تجاه الشرق الإفريقى ، ومدغشقر .

وفى وصف كتاب « عجائب الهند » إشارة إلى أسطولين ،

أحدهما يتكون من ست عشرة سفينة ، والآخر من حوالى ألف غادرت عمان سعياً وراء منتجات إفريقية .

وكان أكبر عدد من السفن فى ذلك الحين قد سجل فى قافلة سفينة ، ذهبت إلى الهند ، مكونة من ثلاث سفن فقط .

ولهذا فقد كانت هذه الرحلات الإفريقية تضم عدداً غير قليل من السفن ، وتشير إلى النطاق الكبير للنشاط العمانى إبان هذه الفترة.

وإن هذا الدليل فى اعتباره ليشير فى نفس الاتجاه إلى أنه قد تم انتهاز فرصة ضعف وتقسيم السلطة فى العراق وإيران ، وبنى عليها التقدم التجارى فى عمان

ولقد حاول حكام عمان فرض السيطرة التجارية على غرب المحيط الهندى من خلال المدن العظيمة فى الخليج .

ويمكن إدراك مدى النجاح الذى حققه العمانيون فى هذا الشأن من الأدلة الأثرية فى صحار ، بالإضافة إلى الوصف الذى أعطاه الجغرافيون لها ، وقالوا عنها ، إنها المركز التجارى للعالم ، كما أنها مدينة أكثر ثراءاً فى مبانيها ، وفى البضائع الأجنبية المتوافرة لديها عن أية مدينة أخرى فى العالم ، كما ورد فيما سبق .

ولقد أكمل المقدسى رحلات ابن حوقل فى عام ٣٧٥ هـ —٩٨٥ م

وكانت معلوماته تعطى سورة حية للموقف التجارى فى فترة حكم الوجيهين فى أثناء سيطرة السفن العمانية على غرب المحيط الهندى والخليج .

* * *

ولم تطل مدة السيطرة التجارية العمانية ، إذ أن البويهيين كانوا يستردون سيطرتهم على العراق وإيران ، ويعيدون السلام والاستقرار لها ، وهى مناطق بالطبع ، أكثر ثراءاً وتعداداً للسكان من عمان .

وفى عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٥ م ،أصبح للبويهيين السيطرة الكاملة على الخلافة .

وفى نحو عام ٣٦٩ هـ — ٩٨٠ م وتحت حكم الخليفة الشاب عضد الدولة ، حاكم فارس ، امتد حكم الخلافة إلى إيران والعراق الحاليتين ، وأصبحت عمان هدفاً للتوسع للخلافة ، إذ كانت قوة البحرية العمانية ورخاء صحار قد أصبح يتهددها سيطرة الخلافة على منطقة الخليج ، وكانت الضرائب تحصل فى فارس على التجارة فى الشرق وفى إفريقية .

وفى عام ٣٥٤ هـ –٩٦٥ م ، وبعد فشل البعثة الدبلوماسية إلى عمان أرسل معز الدولة حاكم العراق أسطولا من البصرة بقيادة عبد الفراج محمد بن عباس ، فى بعثة غزو إلى الخليج ، استولى خلالها على التحصينات فى سيراف ، التى أقامها الخليفة فى فارس .

وهبط الجيشان فى جلفار (رأس الخيمة حالياً) وسارا إلى صحار ، وتم تدمير عدد كبير من الممتلكات ، وقتل كثير من الناس .

وكان هذا طبعاً هو أول غزو لعمان ، وفيه سجل التدمير المتعمد للسفن فى الخليج .

وطبقاً لأقوال المعاصرين فإنه تم تدمير العاصمة التجارية المنافسة للبصرة وسيراف .

وخلال عدة سنوات تحطم الموقف العمانى عن ساحل فارس

وسقطت القلعة الحصينة لبنى الجنندى ، وتحولت إلى سجن للخلافة .

وزحفت قوات الاحتلال فى عام ٣٦٠ هـ –٩٧١ م ،واستولت على صحـــار .

وأرسلت بعثة من فارس فى العام التالى ، وهزمت المقاومة العمانية فى موقعة بحرية عند صحار ، واقتحمت المدينة ، وقتل سكانها بالسلاح الأبيض .

وإن الآثار لتدل على كيفية أداء الفرس لهذا العمل ، وأثر الحكم الفارسي ، الذى تلا ذلك ، فى منطقة صحار .

وبذلك زالت عنها تلك الفترة من الرخاء الذى عرفته صحار ، والتي لم تعد إليها بعد ذلك .

وربما حان الوقت لإضافة اسم صحار إلى قائمة المدن الرائعة مثل ريو شهر ، والبصرة ، وسيراف ، وكيش ، وهى المدن التى كانت لفترة قصيرة تسيطر على التجارة فى العالم إبان العصور الوسطى .

ولم تسترد صحار أهميتها التى كانت عليها فى القرون الرابع والخامس والسادس من الهجرة (العاشر والحادى عشر والثانى عشر من الميلاد) .

ومع ذلك فقد كان للدور البارز لصحار ضمان لها فى القرون الأخرى من التاريخ العمانى .

فى التاريخ المعاصر

ولم تدم سيطرة الخلافة على الخليج فترة طويلة .

ففى حوالى سنة ٤٤٧ هـ — ١٠٥٥ م ،إنهارت الإمبراطورية أمام زحف السلاجقة الذين جاءوا من أواسط آسيا ، وقام فرع منهم بالإقامة فى كرمان تحت حكم توارد ، فى جنوب شرق إيران .
وفى عام ٤٥٥ هـ — ١٠٦٣ م، أصبحت بقية أجزاء إيران تحت سيطرتهم .

وفى العام التالى انتقلوا إلى هرمز .

وبدأ غزو عمان واحتلالها .

وعلى مدى ثلاثمائة عام من عدم الاستقرار فى الخليج ، ظل الساحل العمانى تحت حكم السلاجقة ، وأصبح جزء آخر منها تحت حكم البصريين ، ثم التركمان .

وقد حدثت غارات على سواحل عمان بوساطة المظفرين

من فارس عن طريق جزيرة كيش ، وقامت غارات أخرى من العرب فى الداخل .

وأخيراً تلك الغارات التى تمت بوساطة سكان هرمز .

وكم كثرت الكوارث التى قاست منها عمان .

فكلما نظر إليها المؤرخون وجدوا كارثة تسبب الانهيار التجارى فى صحار .

وقد ألقى الدمشقى المؤرخ اللوم على القرامطة وعلى آل إدريس بالنسبة لجزيرة كيش المجاورة .

ووصف ابن مجاور صحار بأنها كانت مهجورة خلال حكم التركمان ، وعزا تدميرها إلى القبائل المحلية .

وقال أبو الفداء ، إن صحار فى أيامه كانت قرية صغيرة ، عبارة عن أنقاض .

وخلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، نجح حكام جزيرة كيش فى تنمية تجارة سيراف .

وعلى مدار ثلاثمائة عام تنافست كيش وهرمز على تجارة الخليج .

ومع بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، دان الساحل العمانى لسيطرة هرمز ، ثم أصبحت هذه السيطرة كاملة مع نهاية هذا القرن .

وشهدت بداية القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) نمو القوة البحرية لجزيرة كيش .

وفى منتصف هذا القرن أصبح تجار هرمز مسيطرين على الخليج وعلى الساحل العمانى كله .

وكان الميناء الرئيسى لعمان فى ذلك الوقت هو قلهات .

وقد كان هذا الميناء يعتبر فى بعض الأحيان عاصمة ومقر للعائلة المالكة فى هرمز .

ومع كل هذا فان سطرة هـــرمز لم تمتــد إلى داخلية عمان .

وفى مسقط كان كل منزل يحتوى على دولاب سرى لتخزين الأشياء القيمة والثمينة فى حالات الغارات .

وكانت صحار مركز القوة لدى هرمز ، وكانت أكثر أهمية

من قلهات أو مسقط ، حيث ازدهرت صحار فى ظل السلام العام فى منطقة الخليج .

* * *

وفى ذلك الوقت كان وصول مجموعة من البرتغاليين إلى صحار فى عام ٩١٢ هـ — ١٥٠٠ م ، وقد تأثر البرتغاليون بصحار ، كبلدة صغيرة فيها ما لا يقل عن ست آلاف نسمة ، وبها تجارة نامية ، لتصدير البلح والحبوب .

وهى فى نفس الوقت حصن منيع لهرمز .

وقد وصفت بأنها المدينة الجميلة ذات التعداد السكانى الكبير ، وتحتوى على منازل جميلة ، ويوجد بها قلعة مربعة الشكل ، وبها ستة أبراج مستديرة ، وفوق البوابة برجان عظيمان ، ولها حائط مرتفع مناسب وعريض بدرجة كافية .

وتقع على ساحل خليج كبير ، وهى من كبر الحجم بحيث تحتاج إلى ألف جندى لحراستها ، والدفاع عنها ، ويمكن مدها بالماء القريب منها ، بحيث إنها تتحمل الحصار ، وموقعها منيع ومناسب ويرتفع الماء حتى أعلى الجدار .

ولا يوجد بداخل حصنها سوى منازل الحرس ، ومنزل جميل

جداً للحاكم ، لكونه رجلا هاماً من هرمز . ولا تزال هذه القلعة تحمل آثار التخطيط الهرمزى ، وقد زال منها الأبراج من الداخل ، ولكن توجد لها آثار عند منتصف الجهة الشمالية للمبنى .

وعندما سقطت هرمز فى يد البرتغاليين أقاموا بعض الصناعات فى صحار ، ولكن سيطرتهم لم تدم طويلا .

فقد انضمت صحار إلى الصحوة العربية الشاملة ضد البرتغاليين فى عام ٩٢٧ هـ — ١٥٢١ م واستولى عليها الشيخ حسن بن سعيد ، زعيم بنى جابر ، وهى قبيلة قوية تعيش فى داخلية عمان .

وفى عام ٩٨٩ هـ — ١٥٨١ م قام الأسطول التركى الذى يتبع على بك ، والذى سبق أن اجتاح مسقط بالوصول إلى صحار .

وطرد السكان فى صحار المستعمرين البرتغاليين مرة أخرى .

وبرغم محاولة البرتغاليين أن يعيدوا سيطرتهم على صحار ، فقد ظلت المدينة تقاومهم حتى عام ١٠٢٥ هـ — ١٦١٦ م .

وأرسل أسطول من جاوة خاصة للاستيلاء على صحار التى ظلت على مدار أربعين عاما مأوى للسفن الهاربة من البرتغاليين ، وبخاصة من الضرائب التى كانت تفرض عليهم فى مسقط .

وقد عاون البرتغاليين قوة كبيرة من بنى نبهان ، الذين اختلفوا مع سلطان بن أحمد ، وقد كان يسيطر فى ذلك الوقت على صحار .

وتمت تقوية وسائل الدفاع عن المدينة ، وإنشاء برج على الجانب المطل على البحر . غير أن المدافعين لم يكونوا فى مستوى البرتغاليين الذين دمرت مدفعيتهم الحصن .

وقد أشعل الغزاة النار فى البلدة ، واستباحوها ، ثم أعادوا بناء الحصون ، وسرعان ما استكملوا الدفاعات حول المدينة ، فأقاموا حائطاً سمكه متران ، من الطوب المسلح بالحجر ، ومن الطوب الأحمر .

وكان طول الحائط ١٣٠٠ متر على الجانب البحرى ، ولاتزال هناك بقايا لسبعة أبراج ، يبلغ قطر أحدها ثمانية أمتار ، ولايزال موجوداً ، وبه منصة للمدفعية ، كما توجد به قصبات حديدية للمدافع فى ثلاثة من هذه الأبراج .

وفى الحصن نفسه بقايا مدفع برتغالى ، أو لعله أسبانى ، من أواخر القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) .

وربما كانت وجد بوابة على الناحية الجنوبية من السور ظلت حتى عام ١٩٧٢ ، كما كانت هناك خرائط أيضاً ناحية البر .

أما التصميمات الكاملة للتحصينات ، فقد قام برسمها المهندس « بيلو بارثوري ديسندى (عام ١٠٤٥ هـ — ١٦٣٥ م .

وبالرغم من كل هذه التحصينات فقد سقطت صحار فى أيدى لفرس عام ١٠٣١ هـ — ١٦٢٢م ، بعد سقوط هرمز فى أيدى لبرتغاليين بوقت قصير .

وخلال سيطرة الفرس على صحار قاموا بتعزيز الاستحكامات استبدلوا بالبرج الهرمزى الأوسط برجاً مربعاً عالياً كالموجود حاليا.
وفى عام ١٠٣٣ هـ — ١٦٢٣ م ، سقطت صحار فى أيدى لبرتغاليين ، وقاموا بهدم الحصن .

وأخيراً فى عام ١٠٥٣ هـ — ١٦٤٣ م ، استعاد العمانيون المدينة بقيادة الإمام ناصر .

* * *

وفى القرون التى تلت ذلك تناولت صحار أيد كثيرة ، إلا أنها لغت ذروة مجدها وعظمتها عندما غزتها قوات نادر شاه ، التى جاءت من فارس فى عام ١٥٥ — ١١٥٧ هـ (١٧٤٢ — ١٧٤٧ م) كما سقطت فى أيديهم كل من مسقط ومطرح .

ولم يصمد أمام هذا الغزو سوى قلعة صحار ، بقيادة أحمد ابن سعيد .

وبعد حصار طويل لقوات الغزو أرغموا على الانسحاب من عمان .

وبذلك أنقذت البلاد من احتلالهم .

وقد ظل أحفاد ذلك القائد العظيم الإمام أحمد بن سعيد يدافعون في بسالة عن البلاد ، ويحكمونها حتى يومنا هذا .

* * *

رقم الإيداع : ١٨٧ / ٩٤ ١

